الفزاعة

عبد السلام السيّدي

بدت البيوت الطينيّة الواطئة ترزح تحت وطأة القائلة. . أقفرت الدروبُ من المارّة. الرمضاء طردت النّاس إلى حيث الظلال. . لم يعد ثمّة من يجوب الدروب. . الأشجار والجدران وكائنات الطريق بقيت وحدها مصلوبةً تحت قذائف اللهَب. تهدّلت أسلاك الهاتف الممتدّة على جانبي الطريق، وانصهر الاسفلت نافثاً أبخرتَه المشبعة برائحة خانقة. . وبين الفينة والفينة تمرق شاحنةٌ سرعان ما تختفي في البعيد تاركةً آثار دواليبها مرسومةً على القطران. . كانت المغامرة بالخروج في هذا القيظ البغيض ضرباً من الجنون. . ومن الحقول الممتدّة على جانبي الطريق لوّحت أشجارُ الزيتون بخضرتها الغامقة. . هناك تمتدّ الظلالُ حنونةً تزيح عن القلب ما تراكم من أحزان، حيث المياهُ المنسربة عبر الساقية، وأشجار الفاكهة المثقلة بالثمار. . ترى ثمار الرُّمان متدلّية تُغري بالقطاف، وتلك الأزهار الناريّة الجميلة. . وتجيء ثلّةٌ من الصبية الأشقياء يتراكضون عبر أزقّة الحيّ ذي البيوت الطينيّة المسيَّجة بالوشائع من شجيرات اللّبلاب ذات الأزهار القمحيّة الزرقاء. . ثمّة قوّة شيطانيّة عاتية تدفعهم إلى اللعب في هذا الجوّ المسكون بالشمس. . يتقاذفون بالطوب والحجارة والشتائم البذيئة مرسلين من حينٍ لآخر عواءً شبيهاً بعواء الذئاب. . ينحدرون صوب الطريق العمومي ميمّمين نحو أحد الحقول لسرقة ثمار الرُّمان، تاركين وراءهم بيوتهم البائسة المطوّقة بأكوام القمامة والأشواك. . كان يتقدّمهم فتى أسود بدين أشعث الشّعر، يرتدي جلباباً طويلاً تحوّل بياضه إلى لون الرماد. . تضرب أرجلهم الرمال الساخنة مثيرةً سحباً من الغبار. . اجتازوا الطريق الأسفلتيّ المنصهر وانحدروا في درب مترب تمتدّ فوقه الظلال والأوراق اليابسة. . يشتدّ العدْو ويعلو وجيفُ القلوب. ومن فتحة في السياج مرقوا للداخل، رأوا نباتات البرسيم متماوجة بحركة النسيم، أخذوا يخوضونها متّجهين صوب شجيرات الرُّمان. . ألقى أكبرهم نظرةً في البعيد، ارتدّ طرفهُ وهتف بصوتٍ أبحّ: «ثمّة من يراقبنا هناك. . حذارِ قد يكون الناطور»!. . وضع الصبيُّ الأسود يدهَ على جبينه كمظلّة

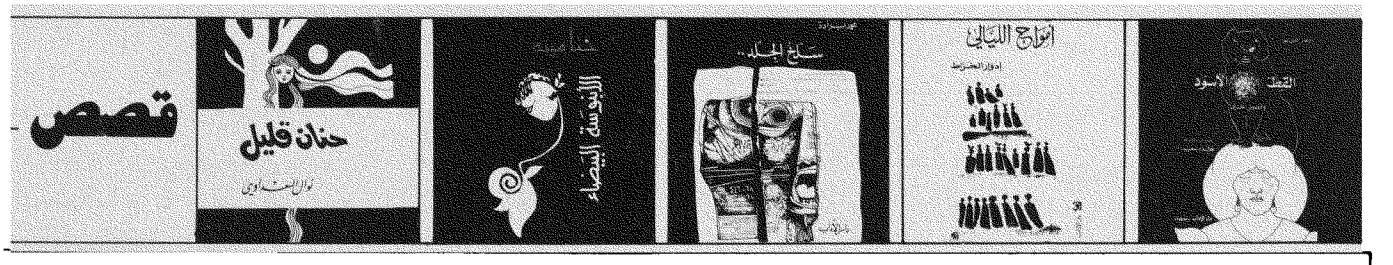

مشهد

بثينة سليمان

المكان: حجرةٌ تعجُّ بأشياء قديمة، صوفا، طاولة صغيرة، أزهار اصطناعيّة، ستارة مخمليّة، نافذة تطلّ على الفراغ. وإلى الحائط المجاور صورةٌ لامرأةٍ متّشحةٍ برداء أحمر ترتسم على شفتيها ابتسامةٌ باهتة.

الضّوء خافت يتسلّل من الحنايا، يضفي شحوباً على تراكم الأشياء، تشوبه ظلالٌ هامدَة لامرأة عارية ورجل.

تُطلُّ المرأة برأسها عبر النّافذة، يداهمها الفراغُ ولونُ البحر الأسود. تتراجع للظلمة فزعةً، والحيوانات المطّاطيّة تقفز فوق عشب الرّصيف تلتهم زبَد العتمة.

تتمطّى الكلماتُ داخل فمها لتتردّى في حجرة الصّمت. صدى ضحكات كانت تتردّد في الحنايا. يكاد الصّوتُ ينعدم وهذا الفراغ ليومين خَلَوَا. كانت تصغي للّحنِ الجنائزيّ، تروي بجسدها نصَّها الأبدي. فقاعة صابون. تنزلق فوق هامتها خيوطُ اللّزوجة. شرنقة ربيعيّة طال الشّتاء على بلوغها.

بات عليها أن تتبع العينَ حين تكلّمه. تستند إلى النّافذة بجسمها النّحيل، وجهها يثرثر بالخوف. والرّجل إلى مقعده يتكوّم فوق وهج سنوات موته. عيناه تضيقان بالرتابة. يمسّد شعرةَ البنّيّ المنحسر فوق جبهته. بدت عيناه أكثرَ بروزاً وحاجباه امتدّا طويلاً.

ترمقه بنظرة خاطفة لتنكسر العينُ وهي تحاول مراقبة الخارج ثانيةً. هذا المساء المشبع بروائح الموت وأصوات المركبات القارّية تتداخل. همهمة القادمين عبر الكواكب تختصر بصخبها عجزَ المكان، تغمره حركةُ الخارج وسط غياب اللّون، والسّواد يتلف نضرة الحياة.

ـ انظر المدينة، لا أرى غيرَ الاسمنت الأسود يزحف ليغطّي مساحات الهواء.

ـ هاتي يدك.

تسحب يدها للخلف، تكتفي بإشارة لامبالية. . القدمان

ونطر مليّاً حيث أشار رفيقه، ثمّ قال: «لا أحد هناك.. إنّها فزاعة الطيور».. قال آخر بلهجة ساخرة: «ناطور هذا الحقل رجلٌ أبلهُ كسول، قد تراه يغطّ في النوم هناك في العرزال».. قال الصبيُّ الأسود: «هيّا نقطف ثمار الرُّمان، لا تضيّعوا الوقت»..

تناثروا حول أشجار الرُّمان يقطفون ثمارها الناضجة، وعندما امتلأت أيديهم وحجورهم قفلوا راجعين عبر الدرب الّذي جاءوا منه منذ حين.. اجتازوا الطريق، ثمّ مضوْا إلى زيتونة كبيرة منتصبة حدَّ صنبور المياه العمومي. افترشوا التراب، وشرعوا يقفزون الثمارَ ويتصاحكون بمرح، وقبالتهم بدا المستنقع بأعشابه الخضراء وأشجار النخيل المغمورة في المياه الآسنة، وفي طرفٍ قصيّ بدت أشجار الصبّار الشائكة، وثمّة تينة ذاتُ أعواد يابسة.. عبق الجوّ بروائح المستقع الفاغمة، وتعالى نقيقُ الضفادع الرتيب..

انتصب الصبيُّ الأسود وطفق يمسح راحتيه في طرف قميصه من ذلك السائل الأصفر الذي تركته قشورُ الرُّمّان، ثمَّ مضى إلى صنبور المياه ليرتوي، فوجد عنده امرأة شابّة بصحبة طفلها الصغير، وقف ينتظر، لكن المرأة أشارت إليه بأن يرتوي من إحدى الجرار الملأى. انحنى يرفع جرّة صغيرة إلى فمه.. تأمّلته وهو يرتوي، وسال الماء على عنقه وصدره. وضع الجرّة على التراب الطري، وقبل أن ينصرف ناول الصغير رمّانة كبيرة، أخذ الصغير في قضمها بفرح. استمرّت المرأة في ملءِ الجرار وطفلها منهمك في قضم الرُّمّانة وطرد الذباب عن عينيه المبلّلتيْن بالدموع..

فرغ الصبية من التهام الثمار، فرنا بعضهم إلى المستنقع، والزيتونة الكبيرة، وصنبور المياه.. رأوا الطيور المائيّة وهي تحطّ عند المستنقع، بسيقانها وأعناقها الطويلة، تفتّش عن ديدان العلق المغمورة في الأوحال السوداء الدبقة.. قال أحدهم، وهو يهبّ واقفاً: «هيّا نذهب لقتل الضفادع».. ثمّ تناول رمّانة معفّرة بالتراب وطوّح بها في اتّجاه المستنقع.. اتّجهوا صوبَ المستنقع بخطى متسارعة. في الداحل رأوا رجلاً عجوزاً يعتمر طاقية سعفٍ ذات حوافّ عريضة: كان يخوض المياه بحثاً عن الديدان، تاركاً درّاجته الهوائيّة وقفّةً بها بعض الحاجيات عند حافّة المستنقع.. قذف أحدهم بحجر.. تناثرت المياه الراكدة على الرجل المنهمك في جمع الديدان، فجفلت ضفدعة كانت جاثمة على علبة صفيح.. التفت

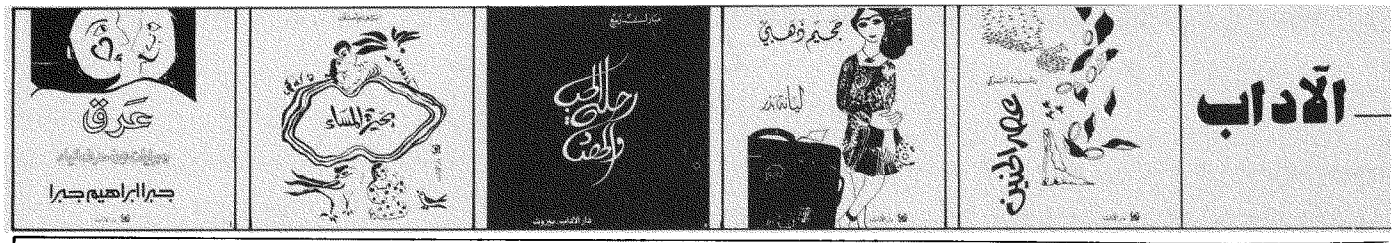

تقتربان أقصى ما يمكن. ضوء المساء المرتبك بوحشة الظّلمة يقف خلف النّافذة، وضبابيّة الدّاخل تخفي معالم وجهين يحتالان فوق وهم الانتظار ولحظات العبور المضني لدقائق الوقت.

كان ما يجري رهاناً.

تحضنها رائحةُ الموت المنبعثة من الخارج. تدفن وجهها بين يديها بحركة تمثيليّة، تنثني بجسدها مقتربة من الرّجل، واللّحن الجنائزيّ يبدّد صمت الموت. تتحسّس أطرافها، حذرةً.

تنهيدة موتورة يطلقها الرّجلُ بوجه المرأة الرّاكدة، يبعثر الكلمات، يجمعها بكفّه، ثمّ يفردها ثانيةً، واحدة واحدة لتسقط بعيداً وتعلق بأشياء المكان.

ـ انهضي واسترجعي مجدَك.

تشير المرأة إلى نهديها الذّابلين: «لا أستطيع الاحتفال بالطفولة».

ولأنّها كانت في غيبوبة الحلم تمضي، فقد أغمضتْ عينيها. تعرف أنّ أحلامها مازالت تسري والقلب وحيد. تراقبه منثنياً بجذعه، عيناه تنهمران بالحيرة.

كانت بحاجةٍ للثرثرة كي لا تشعر بالموت يلفّها.

يمدّ الرّجل كفّه السّميكة، يلملم أوراقه، ينهض من مستنقعه المائي، يتمطّى بجسده الكئيب، يرتفع فوق حدود المرأة وهي تجاوره. يضمّها. تسير به المسافة قصيرة، يزحف ببطء بين مقعده والنّافذة. الأنف حادّ والشّعر قصيرٌ عُقص للخلف دون عناية. يضع كفّه فوق عنقه الصّلب ليتحسّس موضع التّشنُّج. والجبين العريض يوشوش في أذن الصّبيحة المتأخرة كلماتِ عشق. قامته المديدة حناها كلّما أراد أن يخفّف فزعَ المرأة وهي تخبّئ وجهها بالأمل. كانت النّافذة فجوةً تضيق بالوجهين، تخنق الضّوء، تحوك هالات عتمة. يتبادلان نظرات سريعة. تأتيه المرأةُ ببقايا جريدة. يرصدان النّافذة بالعتمة. حينها تدنو المرأة من الرّجل، يضمّها بين ضلوعه، ينحني بجبهته فوق رأسها المتكوّر ليزيدا من تراكم الأشياء داخل الحجرة، وأصوات أنفاسهما تخفت مع اشتداد الظّلمة وارتفاع جلبة الخارج وانعدام الهواء.

بيروت تموز ١٩٩٣

العجوز مصباح إلى حيث الصبية وزعق ملوّحاً بيده: «ها.. انتظر أيّها الشقي سأقتلك»!! ومضى يخوض المياه.. قال الطفل الأسود، وهو يشير بيده إلى صبيّ آخر: «عثمان هو الّذي قذف بالحجر».. مال عثمان إلى أحد الصبية وهمس: «سنهرب بهذه الدرّاجة.. وستركضون ورائي..» هزّ الصبيّ رأسه موافقاً.. رفع عثمان الدرّاجة الّتي كانت ملقاة على التراب، وقفز فوقها، ومضى بها والصبيّة وراءه مُهَلِّلون.. جرى العجوز وراءهم عدّة خطوات، ثمّ توقّف عن مواصلة المسير.. أشعل لفافة، وطفق ينفث دخانها بحنق.. قال في نفسه: «عليّ بالذهاب إلى المخفر لتقديم شكوى..»

مضى عبر الطريق الاسفلتي الّذي كان شبه مقفر، تحت وهج القائلة.. مال أحد الصبية على رفيقه عثمان الّذي كان يقود الدرّاجة: «عثمان أَعِدِ الدرّاجة... إنّه عجوز بائس..».

ردّ عثمان: «صه، إنّها درّاجتي من هذه الساعة»..

قال الصبيّ الأسود ناصحاً: «حذار يا عثمان، قد يشتكي العجوز إلى المخفر».

صاح عثمان بغضب: «سأقطع لسانك أيّها الأسود اللعين..» ثمّ هوى بكفّه على الصبيّ، يضربه ضربات موجعة. وتسارعت حركات قدميه على دوّاستي الدرّاجة.. مشى العجوز إلى مخفر الشرطة، هناك في وسط المدينة. وعند وصوله، كان قد أنهكه التعب، وتحدّر العرق من جبينه، فطفق يجفّفه بمنديل متغضّن سحبه من جيب سروالـه الأسود. كان المخفر عبارةً عن مبنى كبير، انتصبت أمامه أشجار دائمة الخضرة، وفي الجانب الآخر من الرصيف، ثمّة عدد من دكاكين البقالة، ومَرْأب سيّارات.. دلف العجوز إلى المخفر، يؤرجح قفّةً فارغة، وبيده الأخرى قصبة صيد..

قال شرطي كهل، وهو يضيّق ما بين حاجبيه: «إلى أين أيّها الصيّاد العجوز»؟!

ـ لقد سرقوا درّاجتي يا سيّدي..

ـ هل رأيت اللصوص؟

ـ أجل.. الولد عثمان، وبعض الصبية.. رأيتهم يهربون بالدرّاجة.. بعينيّ هاتيْن اللّتين سيأكلهما الدود والتراب..

ـ كفَّ عن الثرثرة، حتّى نأخذ أقوالك..

سار الشرطي ووراءه مشى العجوز مصباح بخطوات واهنة..

في غرفة صغيرة، جلس المحقّق إلى طاولة، تكوّمت فوقها الأضابير والأوراق.. أشار المحقّق إلى العجوز بالجلوس قبالته على كرسيّ خشبيّ قديم.. قال المحقّق، وهو يضع قلمه فوق صفحة السجلّ: «اذكر اسمك، ومهنتك، ومكان السكن..»

ـ اسمي مصباح وأُلقّب بالحوت.. ليس لي عمل سوى اصطياد الأسماك.. أقطن في شارع الأرنؤوط..

ـ هل رأيت سارق درّاجتك؟

ـ أجل.. إنّه الولد عثمان ورفاقه الأشقياء.

ـ ومن يكون الولد عثمان هذا؟

ـ إنّه ولدُ رجلٍ ثريّ يقال له ابراهيم المحمود.

ـ تعني الوجيه ابراهيم المحمود ابن عمّ شكري المحمود عضو مجلس النواب؟

ـ هذا لا يهمّني.. الّذي أعرفه أنّه رجل وجيه..

تقدّم الشرطي الّذي كان واقفاً في الردهة، ومال على المحقّق وهمس: «هذا العجوز أبله، مخبول.. لاتعتدّ بأقواله».

همس المحقّق لرفيقه: «لِمَ لا أعتدّ بقوله»؟!

ـ من يقدر على الوجيه ابراهيم المحمود؟ حذارِ إذا طبّقنا القانون في هذه الحالة سيُرمى بنا إلى الطريق مطرودين كالكلاب..

التفت المحقّق إلى العجوز مصباح وقال: «هل تتّهم ولداً آخر»؟

ـ لا.. حرام عليّ الكذب.. الولد عثمان هو الّذي سرق الدرّاجة.

أُشيرَ إلى العجوز بمغادرة غرفة التحقيق، لينتظر في الخارج، ثمّ أُدخل الصبيّ عثمان.. رفع المحقّق نظراته من فوق أوراقه، ونظر إلى الصبيّ مليّاً، ثمّ أشار عليه بالجلوس.. انخرط الصبيّ في بكاء مرير..

نهض المحقّق واقترب منه، امتدّت يده تربت على رأسه ذي الشعر الكستنائي، وحاطبه بلهجة حانية: «ها..ما يبكيك؟!.. نحن لا نريد إيذاءَك».

ـ أنا أخذت الدرّاجة، وسأعيدها..

جلس المحقّق إلى الطاولة، وأخذ يقلّب بعض الأوراق.. فُتح الباب فجأة، ودخل شرطيّ يتبعه رجلٌ بدين يرتدي بدلةً زرقاء جديدة وربطة عنق، وعلى عينيه نظّارة شمسيّة.. سحب غليونه من شفتيه، وقال محتدّاً: «ما هذا العبث يا سيادة المحقّق؟!.. تفزعون طفلاً صغيراً، وترمونه بتهمة باطلة»!!

ردّ المحقّق، وهو يداري خجله: «المعذرة يا سيّدي.. خطأ بسيط، لتأخذ ابنك، لا تدعه يلعب مع الأولاد الأشقياء..» سحب الوجيه ولده من ذراعه وغادر الغرفة. صفق الباب وراءه بعنف.. في اليوم التالي، حضر العجوز مصباح ليريهم الورقة الّتي تثبت ملكيّته للدرّاجة.. قال المحقّق، وهو يحدجه بنظرة ذات معنى:

«هل أحضرت ما يثبت ملكيتك للدرّاجة»؟ دسّ العجوز يده المعروقة المرتجفة في جيب صدرته، وأخرج ورقة مغضّنة، ناولها للمحقّق.. أخذ المحقّق يقرأ الورقة بصوت خفيض، ثمّ حدّق في وجه العجوز، وقال: «يا عمّي مصباح إنّ الرقم المكتوب في هذه الورقة لا ينطبق على رقم هيكل الدرّاجة، وهذا لا يثبت ملكيّتك للدرّاجة.. أنصحك بأن لا تتعب نفسك، ستصادَرُ الدرّاجة، وتؤول ملكيّتها للحكومة».. ندت عن العجوز آهة موجعة.. نهض بتثاقل وغادر حجرة التحقيق.. في الخارج وبينما هو يعبر الممرّ، ألقى نظرة جانبيّة، في ردهة مظلمة.. رأى درّاجته مسندةً على الجدار.. قال في نفسه: «لم تعد درّاجتي، صارت من أملاك الحكومة، وعليه فإنّي سأمشي على قدميّ مسافة طويلة..» مضى في الطريق الطويل المؤدّي إلى القرية، وعاد يحدّث نفسه: «غداً أجمع ثمن عربة خشبيّة وحمار.. سأذهب إلى شاطئ مقفر، بعيداً عن الأعين الحاقدة..». مرّ بمحاذاة المستنقع، الّذي كثيراً ما خاض أوحاله ومياهه الآسنة. تناهى إليه نقيقُ الضفادع الرتيب، وفغمت أنفه روائحُ عطنة مقرفة.. انحنى يلتقط حجراً، طوّح به في اتّجاه المياه الراكدة، وواصل المسير... لم يعد يفكّر في شيء، سوى نومٍ عميق، يتلفّع بشرشف هرباً من لسعات البعوض، ويحلم بعالم سعيد يسوده العدل.

ساعتئذٍ كان في المخفر شرطيٌّ نحيل أشيبُ الشعر، له وجه شاحبٌ ممصوص، وعينان صغيرتان كعينَيْ فأر، وله شارب أسود منفوش، طفق يفتّش عن الدرّاجة، الّتي كثيراً ما رآها في الردهة، وعندما يئس من العثور عليها، ضرب جبينه براحة يده، كأنّه يتذكّر شيئاً أضاعه، وأخذ يغمغم: «لقد أخذها الشاويش مفتاح.. سبقني ابن العاهرة.. أنا أحمق.. أحمق!!». وأمام غرفة التوقيف ذات الباب الحديدي ذي الكوّة الصغيرة المزروعة بالقضبان، كان ثمّة شرطي شاب له شارب أسود مشذّب، ووجه ممتلئ، وعينان رماديّتان. حنى رأسه، يخاطب الصبيّ الأسود، بصوتٍ خفيض فيه رقّة: «لقد أطلق سراح رفاقك، لم يعد في الحجز سواك.. هل تعرف لماذا؟»

هزّ الصبيّ رأسه بالنفي..

واصل الشرطي حديثه: «لأنّ لهم أناساً هناك.. فوق.. في الحكومة.. لماذا تعيش إذا كنتَ مقطوعاً من شجرة.. وحيداً!!» ثمّ قذف به داخل الحبس، وجذب البابَ بعنف.

تكوّم الصغير لصق الجدار، وأخذ ينتحب.

طرابلس (ليبيا)

موسوعة عيدان الكبريت

محمّد أبو معتوق

... كثيراً ما أُحسُّ بأنّني أخرج من الجدار.. أو أدخلُ من السَّقف.. ولذلك أشعر بالعالم وأشعُرُ بأنّه مفتوح أمامي برمّته. حتّى المعادن الصّلبة تستجيب لي.. فعندما أقبض على حديد السيَّارة، ينفتح فجأة أمامي باب، فأنحني برأسي وأرمق السّائق بتوازن، وأطلب منه إيصالي إلى قريتي القريبة من المدينة... نعم إلى قريتي وموئل طفولتي ومراهقتي وشتائم أمّي وصفعات أبي، حيث يمكنني أن أتساءل كم عوداً للكبريت يمكن للشجرة الغريبة أن تكون؟

عندما أفرغتُ بيتي في المدينة ـ بيتي الّذي شربت بثمنه عرقاً ـ حزمتُ أمري وأخرجتُ نفسي وذكرياتي من البيت وسلّمت المفاتيحَ للغرباء.. وقد خطرتْ ببالي عند تسليمه فكرةُ أن أبني بزجاجات العرق الفارغة منزلاً بديلاً مُعْتَبَراً في فضاء الله.. ولكنّني أقلعتُ عن تنفيذ الفكرة، لأنّني من المصابين بحساسية مفرطة تجاه الزّجاجات الفارغة.. ومن يدري: فعندما أقوم ببناء البيت فقد أخسر حساسيتي تلك وأصبح كائناً بليداً لا يفرّق بين الفارغ والملآن.. لذلك خرجتُ من البيت وتركته فارغاً... وقد فعلت ذلك، بعد أن طلّقت الزّوجةَ والأولاد وأوصلتهم إلى بيت جدّهم من طرف أمّهم في المدينة، وذهبتُ إلى القرية، إلى بيت أمّي وأبي من طرفي.. وقد أطلقتُ على هذه المرحلة اسمَ العودة للجذور. ولأنّ قريتنا تنتج البقول والبصل والفوم، ولا تنتج الأعناب والخمائر والأصحاب، فقد قرّرتُ أن أدخل القرية ليلاً وأخرج منها ليلاً حتّى لا تراني ولا أراها..

في أحايين كثيرة، ورغبة منّي في التّشبّث بالأرض، أحاول أن أقف في ساحة الدّار ليلاً لأمدّ ذراعيّ مقلّداً شجرة: فربّما أورقتْ أصابعي في ليل القرية النّديّ. وعندما أمتلئ بالوحدة والتّحول، وأشعرُ بأنّني قد صرت شجرةً غريبة، أصيح على أمّي العجوز بصوت مرتفع حتّى تسمعني.. لأقول لها: تعالي واقعدي تحت أغصاني.. وإذا لم تصدّقي تحوّلاتي فحاولي بفأس ذكرياتك الغابرة وشبابك أن تتدفّئي بخشب روحي.